العرب
الأحد 2020/01/12
السنة 42 العدد 11584

إيتيل عدنان: أنا دمشقية يونانية

أكتب بلا ذاكرة أدبية وشعري لا يخرج من تاريخ الشعر ولكن من الخبرة الفطرية للكائن

إيتيل عدنان تشبه جمال اللغة بسكة حديد تحمل عربة مندفعة (غرافيكس «الجديد»)

إيتيل عدنان شاعرة وفنانة تشكيلية من سوريا تكتب بالإنكليزية وتقيم خارج سوريا منذ أكثر من أربعين عاما، وإقامتها بين مدينتين كاليفورنيا وباريس. هي ابنة لأب دمشقي هو آصاف عدنان قدري كان ضابطا في الجيش العثماني وأم يونانية مولودة في أزمير هي روز ليليا لاكورتي. عاشت ردحا من طفولتها في بيروت، وربيت في ظل هيمنة اللغة الفرنسية على العربية في الاستعمال اليومي لعائلات ميسورة. درست الأدب الإنكليزي وهاجرت إلى فرنسا أولا، ثم اتجهت إلى أميركا حيث تخصصت في الفلسفة، وعملت أكاديمية في إحدى الجامعات الأميركية. أطول إقامة لها كانت في أميركا، وهناك أصدرت جل أعمالها الشعرية. الحوار معها جرى في لندن أثناء توقفها في رحلتها السنوية بين كاليفورنيا وباريس. ما سلف كان المقدمة القصيرة التي وضعتها لحواري هذا مع إيتيل عدنان الشخصية الفريدة من نوعها بين مبدعي الشعر والرسم وكنت أجريته معها قبل ربع قرن من اليوم عندما كنت أحرّر مجلة "الكاتبة" في لندن مطالع التسعينات. صداقة شعرية من نوع خاص ربطتني بهذهِ الشخصية الطفولية إيتيل عدنان بعدما فاجأتني ذات يوم بإنجازها عملاً فنيا كبيرا مستوحا من كتابي "مجاراة الصوت". عرضته في عدد من متاحف العالم، من نيويورك إلى جنيف، إلى باريس، ، وكانت آخر محطة له في معرض لندني. وبعد العرض أهدتني العمل الذي يشبه الأكورديون. واليوم أعترف بألم أنني فقدت تلك النسخة اليتيمة. ولم أتمكن من أن أكشف الأمر لهذه الفنانة والشاعرة الكبيرة بأن العمل الفني الذي أنجزته وأهدته لذلك الشاب الطائش الذي كنت لم يعد موجوداً. الشعراء كائنات طائشة. لكن هذا الحوار معها كان فوزا بليغا. فلم يسبق لي أن قرأت أو أنجزت حوارا مع شاعرة أو شاعر يتحدث بالطريقة العميقة والبسيطة بساطة آسرة كتلك التي تتحدث فيها إيتيل عدنان عن الشعر والشاعر والكلمات وعن الفن والفنان والعالم. شيء لا يشبهه إلا العمق الطفولي المذهل في الشعر نفسه. لن أضيف أكثر، ولكن أترك صوت الشاعرة يتكلم.

نوري الجراح
شاعر سوري

الجديد: كيف تنظرين إلى الخيط الفلسفي الذي ينظم عملك الشعري "كتاب البحر" الصادر مؤخرا في ترجمة عربية، وهو عمل كتب في فترة مكبرة. هل توافقينني، من الأساس، على وجود مثل هذا الخيط في شعرك عموما؟

■ **إيتيل عدنان:** شعري الأول في "كتاب البحر" كتبته قبل دراسة الفلسفة. درست أولاً الأدب ثم تخصصت في الفلسفة. وفي أميركا عملت أستاذة للفلسفة في إحدى الجامعات على مقربة من سان فرانسيسكو. "كتاب البحر" وضعته قبل أن أبلغ العشرين. ولا بد أن يكون اختياري الفلسفة مبنيا على رغبة وأساس طبيعيين، وبالتالي مبكّرين. وهذا الاهتمام ركز اجتهادي في فقه الكون. قبل بضع سنوات كنت مريضة جدا، وخفت أن أموت. والآن أتذكر في سن الرابعة، وكنت، مذ ذاك، أشعر وأحس أنني أسبح في وجود مطلق. وأنا، أيضا، من برج الحوت. قبل عشر سنوات كتبت في شعري ما معناه "ما أحببت الرجل لأنني أحببت البحر أكثر من حبّي للمخلوقات الأخرى". وكما ترى فإن الإنسان يكتب ثم يدرك لاحقا الدلالة الخاصة لما كتب. ولكن هذه حقيقة شعرية وليست حقيقة إنسانية. نحن نحتاج لأن نفرّق بين شفقتي على نفسي من الموت، لأنني كنت أحس وأعتقد بعمق وقوة أن الكون سيخسر بموتي صديقا كبيراً.

هذا ما كنت أشعر به. أحب الكون. منذ صغري أحببت الطبيعة، السماء والشمس والقمر والزرقة العميقة. أبي كان ضابطا سوريا من دمشق في الجيش العثماني. درس إلى علومه الحربية اللغة والفلك والجغرافيا، وكان مثقفا مطلعا نال قسطا وافرا من معارف مختلفة. في صغري كان ينبهني إلى ظواهر الطبيعة وموجوداتها. ومازالت صورة إشاراته وملاحظاته المحرضة مطبوعة في ذاكرتي، كأن ينبهني إلى القمر، قائلا: انظري إليه، لا أحد يستطيع الوصول إلى هناك. القمر كان صورة مجسمة للمستحيل. الشيء الآخر الذي أحببته كأكثر ما أحببت كان البحر.

● **الجديد:** أيّ بحر؟

■ **إيتيل عدنان:** بحر بيروت. كنت أسبح وأحس أنني أسبح في وجود مطلق. وأنا، أيضا، من برج الحوت. قبل عشر سنوات كتبت في شعري ما معناه "ما أحببت الرجل لأنني أحببت البحر أكثر من حبّي للمخلوقات الأخرى". وكما ترى فإن الإنسان يكتب ثم يدرك لاحقا الدلالة الخاصة لما كتب. ولكن هذه حقيقة شعرية وليست حقيقة إنسانية. نحن نحتاج لأن نفرّق بين ما هو حقائق شعرية وما هو حقائق إنسانية لئلا يبطل التمييز بين الواقع والفن.

خطورة الشعر أنه يخرج من روح ويصل إلى روح. لذلك فإن السلطة الطاغية تخاف سلطة الشعر، لأنها غير مرئية

على قدر حبي للبحر كنت مهجوسة بالرغبة في الوصول إلى الماء، وكنت أتابعه وأوخذ إليه من وراء الأبنية عبر الشوارع التي تحجبه وتلك التي تفضي إليه. ولم تكن عيناي فقط تتوقان إلى البحر، وإنما جسدي كله بكامل كيانه كان يستشعره وينجذب إليه. منير العكش، لو كنت تعرفه، قال لي، بعد قراءة "كتاب البحر" إن في هذا الشعر نظرة إلى البحر لا تماثلها إلا نظرة الإغريق إليه، شعره يعكس في القارئ إحساسا بحركة البدء، ويجسد شيئا من صور الخلق في الكون، عندما كان الوجود ما يزال سديما. وفي نظري هو كتاب يجسد زواج الشمس والبحر.

شعري لا يخرج من تاريخ الشعر، وإنما من خبرة الكائن الفطرية، ومن تفكره في الوجود بصفاء. لذلك أحس عندما أكتب أن الدنيا تتحول إلى وجود جديد. أكتب بلا ذاكرة أدبية. وهذا النمط من العلاقة مع الكتابة بدأ مع كتابي الشعري الأول، ورافقني خلال أعمالي اللاحقة. إنه ينطبق على كل ما كتبت.

الشعر والحقيقة

● **الجديد:** هل يقدم الشعر، في رأيك، حقائق عن الوجود؟ هل مطلوب من الشعر أن يقدم أيّ حقائق؟ وإذا كانت الحقائق الاجتماعية في جلّ ما نستعرضه عبر التاريخ هي حقائق مضادة للإنسان وملوثة لوجوده، إن لم نقل مدمرة، خصوصا عندما تصدر عن خلل في الميزان الإنساني لصالح القوة المتسلطة والأنانية والشرسة، عند ذاك ما هي حقائق الشاعر وحقائق الشعر؟

■ **إيتيل عدنان:** إذا كان هناك شيء اسمه الحقيقة فهي موجودة أصلا وأساسا في الفن. الشخص يستطيع أن يكذب، لكن الشعر لا يكذب. الشعر يخرج من الأعماق، ممّا قبل الفكر. في أوقات، على المرء أن يكتب حتى يعرف بم يفكر، بالكتابة يجد الكائن حقيقة ذاته، ومن حقيقة الذات يمكنه العثور على حقيقة أكبر. ولكن إذا لم يبدأ المرء من الذات، فهو لن يصل إلى أيّ حقيقة.

● **الجديد:** ولكن هل يمكن تعيين وتسمية حقائق الشعر؟

■ **إيتيل عدنان:** هي الشعر نفسه. الشعر ليس ترجمة لأيّ حقائق مفترضة. ويجوز أن تكون هناك حقائق بلا أيّ فائدة. وإذا حاول المرء مع الشعر بحثا وتفسيرا لكل شيء إذ ذاك سوف تتبدد الحقيقة. فالشعر كالموسيقى. الموسيقى لا يمكن ترجمتها في كلمات. كذلك الشعر فالشعر لا يترجم.

● **الجديد:** الشعر يكتب بالكلمات. والكلمات لها دلالات تاريخية واجتماعية وإنسانية مختلفة. وهذه لا يستطيع الشاعر تجنبها، أو تجاهلها. كيف إذن تصير كلمات سابقة على الشاعر كلماته وحده؟

■ **إيتيل عدنان:** هنا المشكلة الجوهرية في الكتابة. فالشعر موجود بين الكلمات كأدوات استعمال للجميع، والكلمات كأدوات خاصة.

■ **الجديد:** أين تكمن، إذن، الحياة الخاصة للكلمات؟

■ **إيتيل عدنان:** الكلمات شيء مثل الأرض التي نمشي عليها حفاة. وقصائدنا هي آثار خطواتنا على تلك الأرض.

قوة الشعر

● **الجديد:** هل الشعر قوة؟

■ **إيتيل عدنان:** نعم، قوة.

● **الجديد:** كيف؟

■ **إيتيل عدنان:** الشعر يملك قوة الحقيقة، وليس هناك شيء ثوري أكثر من الحقيقة. الحقيقة تخيف الناس. وحقيقة الضعف تخيف أكثر من أيّ حقيقة بشرية أخرى. لذلك فإن حقيقة الضعف بالغة القوة. الناس غالباً ما يخافون الوقوف أمام المرآة. وإذا تكلم امرؤ على ضعفه، فهو في اعتباري شخص أقوى من شخص آخر يستعرض قوّته، ويباهي بها، أو يدعيها. إنه شخص لديه قوة أن يرى الدنيا كما هي في جوهرها العميق. وفعل كهذا يحتاج إلى قوة عقلية وروحية كبيرة حتى يسمو في الضعف. أصعب شيء أن تسمّي الأشياء بأسمائها مهما كانت هذه الأشياء بسيطة أو عظيمة. الشعر يسمّي. الشعر يمنح الاسم.

الكلمات والألوان

● **الجديد:** كشاعرة تكتب وتشكّل بالكلمات، وفنانة ترسم وتلوّن، أيهما الأكثر تمثيلا للروح الفني لديك والأكثر قربا من نفسك وأقدر على التعبير عن هذه النفس بالأقل من الحواجز، الشعر أم التشكيل؟

■ **إيتيل عدنان:** لا أعرف، حقيقة. أنا أكتب قبل أن أرسم. والكتابة والرسم بداهة إذ يصدران عن روح واحدة إنما يعبران بوسائل مختلفة عن هذه الروح. لا أعتقد أن أحدا يمكنه الكشف عن كامل العلاقات بين الفنين. نحن نقوم بعمل أشياء كثيرة لا ندركها. نحن، مثلا نمشي، ولا نعرف ميكانيكا المشي في جسمنا. حتى الأخصائي لا يعرف على نحو نهائي. هناك سر دائما. حقيقة نحن لا نعرف. نحس ذلك في جسدنا. كيف مثلا يبدأ طفل صغير، فجأة، في المشي. في الكون أسرار كثيرة، ونحن لا نعرف إلا القليل القليل من الحقائق.

● **الجديد:** هل يعني ذلك أن النقاد، مثلا هم مجرد قراء قد يصدرون أحيانا عن وهم أو قصور، وبالتالي ليس علينا أن نأخذ قراءاتهم على أنها صائبة باستمرار؟

■ **إيتيل عدنان:** تماماً. ولو نحن عدنا إلى الذات الفنية المنتجة لنوعين من الفن، فإن ما ينتج عنها شيء تصعب المفاضلة ما بينه. لأننا بصدد متع مختلفة. الكتابة مثلا صعبة للجسم، لأن الذي يكتب يجلس غالبا في وضعية قد لا تكون مريحة للجسم، بينما الفن التشكيلي كالرياضة، معه يدخل الجسم في عمله أكثر مما يدخل في الكتابة، وبالتالي تحقق الفنان في عمله يكون أكبر. ومن الطبيعي أن تكون العلاقات بين الكلمات والرسم متغيرة من فنان إلى آخر. مثلا بول كلي ودولاكروا كتبا، ولكن كتابتهما كانت إما عبارة عن يوميات، أو نظرات فلسفية.

شعري لا يخرج من تاريخ الشعر، وإنما من خبرة الكائن الفطرية، ومن تفكره في الوجود

أيضا فإن فان غوغ في رسائله كان كاتبا عظيما ولم يبرع فقط في الفن، وعلى الرغم من أنه يتساوى مع كلي في قدرته الفنية وتأملاته الفلسفية، إلا أنه كان مختلفا عنه كثيرا في فنه، فقد سعى فان غوغ وراء حقيقة مزدوجة أن لا يرسم وكفى، وإنما أن يرسم ليكون نقيا وميتافيزيقيا في لوحته وكتابته سواء بسواء. بينما نجد أن بول كلي يصب مشاعره وتأملاته وأفكاره كلها في لوحته. إنه يفكر في الرسم، يستعمل الخطوط والألوان ككلمات توصل معنى فلسفيا، بخلاف فان غوغ الذي يرسم ليصبح أنقى.

● **الجديد:** وماذا عنك بين الكلمات والألوان، أيّ فلسفة تناسبك لرسم العلاقة بينهما؟

■ **إيتيل عدنان:** في البداية لم يكن في وسعي التوصل إلى خلاصات فكرية بصدد ذلك، لكنني لاحظت لاحقا أن هناك وجهين يتبادلان الظهور في شخصيتي ويعبّران عن نفسيهما في كتابتي، الأول مأساوي، والثاني فلسفي. بينما يأخذني حب السعادة والرغبة في نيلها إلى الرسم. أنا أسعد عندما أرسم. الرسم هو الشيء الذي يسعدني.

الصفحة 10، 11، 12، 13، 14 تنشر بالاتفاق مع «الجديد» الشهرية الثقافية اللندنية.

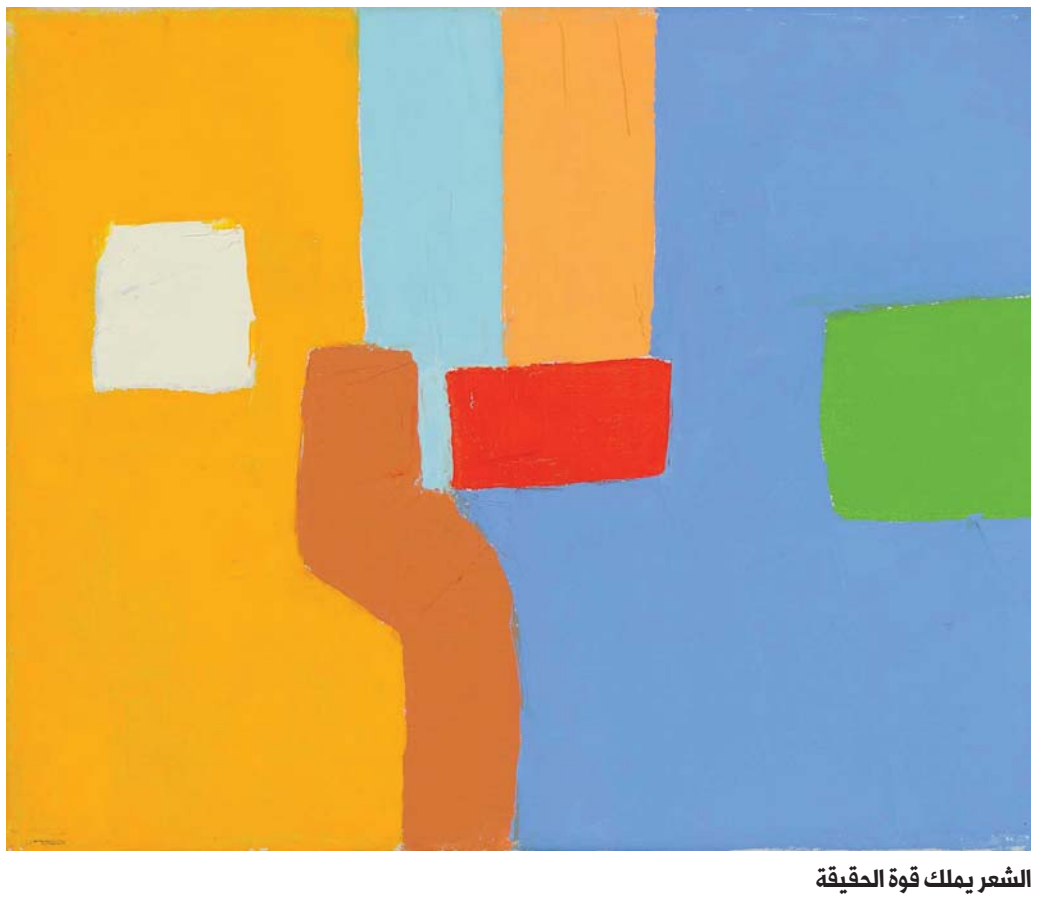

الشعر يملك قوة الحقيقة